عمر والدولة الإسلامية

تأسست الدولة الإسلامية فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه لأنه وطد العقيدة وسير البعوث، فتشرع السنة الطالحة فى توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه فى حرب الردة، وشرع السنة الصالحة فى تأمين الدولة من أعدائها بتيسير البعوث وفتح الفتوح فكان له السبق على خلفاء الإسلام فى هذين العملين الجليلين.

إلا أننا نسمى عمر مؤسسًا للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق فى أعمال الخلافة. لأننا "أولا" لا نجد مكانًا فى التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام.

ولأننا من جهة أخرى لا نربطبين التأسيس وولاية الخلافة فى إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذا الشأن الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس للتوسع فى الغزوات والفتوح، وعمر كان على نحو من الأنحاء لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسسًا منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه، وأعزها بهيبته وعنفوانه.

وكان مؤسسًا لهم يوم بسط يده إلى أبى بكر فبايعه بالخلافة وحسم الفتنة التى أوشكت أن تعصف بأركانها، وكان مؤسسًا لها يوم أشار على أبى بكر بجمع القرآن الكريم وهو فى الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم، ولهم يزل يراجع أبا بكر حتى استدعى زيدُ بن ثابت كتاب الوحى فأمره أن يتبع آى القرآن ليجمعها من الرقاع والأكتاف والعسب[1] وصدور الرجال، فكان ذلك أول الشروع فى جمع الكتاب.

---

(١) الأكتاف: جمع كتف، والعسب جمع عيب وهو جريد النخل، كانوا ينزعون خوصه يكتسبون فى طرفه العريض، وكان العرب يكتبون كذلك على صفائح الحجارة وعلى الأضلاع والأكتاف، إلخ.

هذا إلى أبا بكر رضى الله عنه أسس ولم يتسع له الأجل حتى يفرغ من عمله، وجاء عمر بعده فأتهم عمله وقام الأساس ثم أقام عليه البناء، وكانت قدرته على التأسيس هى آية الآيات فيه وفى ذلك العصر من البداوة البادية، لأنه التفت مواضعه الخليقة بالاهتمام والتقديم كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة الملك راسخة العمران. وهى قدرة تروعنا وتدهشنا لو شهدناها من ملك تربى على الملك، وسلفه[1] على عرشه سمط[2] من الملوك. وأولى أن تروعنا وتدهشنا من رجل البادية الذى يقدم على أمر جديد لم تعنه فيه السوابق ولم يهتد فيه إلا بما اختار هو أن يهتدى إليه.

فبعد جمع القرآن لا نعرف ملا يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد. وكلاهما عمل لا يفطن إليه إلا من طبع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها، وكلاهما فظن إليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة، فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آى القرآن، وكان أثره فى تدعيم الدولة العربية كأثره فى تدعيم دولة الغزوات والفتوح.

وندر فى الدولة الإسلامية نظام لم تكن له أولية فيه.. فافتتح تاريخًا، واستهل حضارة، وأنشأ حكومة ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والإدارة واتخذ لها بيت مال، ووصل بين أجزائها بالبريد، وحمى ثغورها بالمرابطين، وصنع كل شىء فى الوقت الذى ينبغى أن يصنع فيه، وعلى الوجه الذى يحسن به الابتداء، فأوجز ما يقال فيه أنه وضع دستوراً لكل شىء وتركه قائمًا على أساس لمن شاء أن يبنى عليه.

وملاك[3] النظم الحكومية كلها نظام الشورى الذى أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه فى زمانه، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة

---

(١) سلفه: تقدمه. (٢) سمط: خيط تنظم فيه حبات العقد، والمراد عدد.

(٣) ملاك الأمر: قوامه وأساسه، يقال: القلب ملاك الجسد.

والاستفتاء، وضن بهم على العمالة فى أطراف الدولة، تنزيها لأقدارهم وانتفاعًا برأيهم واعتزازًا بتأييدهم له ومعاونتهم إياه فيما يتولاه من ثواب أو عقاب.

وجعل مواسم الحج موسمًا عامًا للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء فى أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها، يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم ويفد فيه من أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم، ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم فى أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال.. فهى "جمعية عمومية" كأوفى ما تكون الجمعيات. العمومية فى عصر من العصور.

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم، ويستمع لهم ويسمعهم،ويتوخى فى جميع ذلك تمحيص الأى وإبراء الذمة والخلوص إلى التبعة السليمة من العقابيل.

وإن أضعف الناس رأيًا لمن يستضعف فضل الأمير فى عمل تولاه لأنه عمله بمشاورة غيره.

فإن باب المشاورة مفتوح لكل إنسان، وليس كل إنسان مع ذلك بالذى يريد أن يستشير، أو بالذى يعرف كيف يستشير إذا أراد، أو بالذى يحسن الموازنة بين الآراء إن عرف يستشرهم ومن يقبل مشورتهم فى حالة ويرفضها فى حالة أخرى.

إن المشاورة لفن عسير.

وإن الذى ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممنْ يشير عليه.

وقد كان عمر عبقرى هذا الفن الذى لا يجارى. وكان من بدعه الملهمة فى هذا الفن العسير أنه لم يلتمس الرأى عند أهل الحنكة والخبرة وكفى، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك فى الشعور

والتفكير. . فكان كما روى يوسف بن الماجشون: "إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارتهم لحدة عقولهم"، وإنه لإلهام فى فن الاستشارة لا يلهمه إلا صاحب رأى أصيل، فمن الرأى الأصيل أن يخبر[1] الإنسان كيف يستعير آراء المشيرين.

انظر إليه كيف يستشير فى اختيار أمير، تعلم أن الاستشارة كما قلنا فن، وأنه فن عسير.

قال لأصحابه: لونى على رجل أستعمله.

فسألوه: ما شرطك فيه؟

قال: "إذا كان فى القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم".

إن الذى يسأل هكذا، لهو أقدر من الذى يجيبه بالصواب، لأنه قطع له ثلثى الطريق السديد إلى الجواب.

وكان ربما استشار العدو الذى لا يأمنه، كما فعل فى سماع رأى الهرمزان فى أمر الحرب الفارسية، لأنه بصير يطلب نورا، فإذا رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق.

ومن اليسير، إذا تعقبنا[2] مشاورات عمر، أن نعلم أنه هو واضع دستور الشورى فى الدولة الإسلامية، وأن الشورى التى وضع دستورها فى شورى الرأى الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء.

وقد وضع لقواده دستور الحرب، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم[3] أعدائها، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده.

---

(١) خبر الأمر يخبروه من باب نصر: علمه.
(٢) تعقبنا: تتبعنا.
(٣) تخوم. حدود، جمع نخم.

فأرسل المدد إلى العراق وعليه أبو عبيد بن مسعود الثقفى، وعلمه كيف يستشير مجلس الحرب الذى معه، ويف تقدم فى موضع الإقدام ويثريث فى موضع التريث، وأحمل له ذلك فى فوله: "اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ، وأشركهم فى الأمر، ولا تجتهد مسرعا بل اتئد، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[1]، الذى يعرف الفرصة، ولا يمنعنى أن أؤمر سليطًا (ابن قيس) إلا سرعته إلى الحرب - إلا عن بيان - ضياع" وزاده تبصره بالحيطة فقال له: "إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية[2]: تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه، وتيناسوا الخير فجهلوه. فانظر كيف تكون، وأحرز[3] لسانك ولا تفشين سرك، فإن صاحب السر - ما يضبطه - متحصن لا يؤتى من وجه يكره، وإذا لم يضبطه كان بمضيعة". فهى المشاورة، ثم أناة فى الاجتهاد، إلا أن تجب السرعة، ببيان وثقة، فليكن الإسراع. وهذه وصية عمر بن الخطاب الذى يظن به الاندفاع. وينسى من يظن به هذا الظن، أنه قوى ضابط فى وقت واحد، وعندا يقترن الاندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب.

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص بعد اختياره فارس وفى كتابه له قبس من هذا المعنى: "إذا انتهت إلى القادسية، وهو منزل رغيب خصيب دونه[4] قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك[5] على أنقابها[6] ويكون الناس بين الحجر

---

(١) المكيث: الذى لا تثرثر.

(٢) الجبرية: بفتح الجيم وسكون الباء مع تشديد الياء: الكبر مثل الجبروت.

(٣) أحرز: الحرز المكان الحصين، فالمراد حصن لسانك وأضبطه ولا تثرثر.

(٤) دونه: بينك وبينه.

(٥) مسالحك: جمع مسلحة على وزن مصلحة، جند المراقبة على الحدود.

(٦) أنقابها: جمع نقب، وهو هن الطريق فى الجبل.

والمدر[1]، على حافات الحجر، وحافات المدر، والجراع[2] بينها، ثم الزم مكانك، فلا تبرحه، فإنك إذ أحسوك أنغصتهم، ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم، وحدهم وجدهم[3] - فإن أنتم صرتم لعدوكم، واحتسبتم لقتاله، وقويتم الأمانة - رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا تجتمع لكم مثلهم أبدًا، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى[4]، كأن الحجر فى أدياركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليهم أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتى الله بالفتح"، ثم كتب إليه يستوصفه المنازل التى نزل بها ويسأله: "ابن بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم الذى بلى مصادمتكم؟ فإنه قد منعنى من بغض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه، والذى استقر عليه أمر عدوكم. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها، واجعلنى من أمركم على الجلية".

وكتب إلى أبى عبيدة وقد ترك حصار حلب يستضعف رأيه فى ترك حصارها: "... سرنى ما علمت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحى التى قربت من أنطاكية فهذا بئس الرأى.. أتترك رجلا ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحى والبلاد بأنك ما قدرت عليه؟.. فما هذا برأى.. يعلو ذكر مما صنع، ويطمع من لم يطمع، فترجع إليك الجيوش وتكاتب ملوكها. فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.. وقد أنفذت إليك كتابى هذا ومعه أهل مشارف[5] اليمن ممن وهب نفسه لله ورسوله، ورغب فى

---

(١) المدر: جمع مدرة وهى القرية والحضر، وعكسها الوبر أى البادية، والمراد، بالحجر من أرض العرب الجبلية الوعرة.

(٢) الجراع: جمع أجرع وهو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ولا تنبت.

(٣) حدهم وجدهم: يقال "فلان له جد وحد" أى له بأس وقوة.

(٤) الأخرى: يقصد النكسة أو الانهزام. (٥) مشافر الأرض: أعاليها.

الجهـاد فى سبيل الله، وهم عـرب وموال[1]، رجال وفـرسان، والمدد يأتيك متواليًا إن شاء الله تعالى".

فكان دستوره فى الحرب أن يضع الأسس العامـة ويعهد فى تنفيذها إلى ذى خبرة وأمانة، ولا يتخلى عن تبعـته العظمى فى مصائر الحرب كل التخلى اعتمادًا على القائد وحده، إذ ليس القائد المسئول الوحيد عن المصير.

فإذا رأى القائد رأيًا وخالفه هو فى رأيه أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأى الذى دعاه إليه، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعانته عليه، ولقد كان إلى جانب هـذا السهر على الميـادين عامـة لا يغل يد القائد فـيمـا يحسن أن تنطلق فـيه، فإذا تجـاوز الأمر سـياسـة الحرب العامـة من فتح الميـادين وفك الحصار وانتـظار الهجوم فمن حق القـائد أن يختار لنفسـه ولا ينتظر الرجوع إليه، وأن يجـرى فى إدارة المعركـة على الوجه الذى تمليـه ضرورة السـاعة، ولهذا استـشارة أبو عبيدة فى دخول الدروب خـلف العدو فكتب إليه: "أنت الشاهد وأنا الغائب، والشاهد يرى مـا لا يرى الغائب، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار فـإن رأيت الدخول إلى الدروب صوابًا فابعث إليهم السرايا، وادخـل معهم بلادهم، وضـيق عليهم مـسالكهم، وإن طلـبوا إليك الصلح فصالحهم...".

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدائتها.

وهو يختار القائد الضليع بتيسير تلك الحملة.

وهو بعد هذا لا يـعفى نفسـه من التبـعة، ولا يعفى القـائد من واجب الرجوع إليـه فى المواقف الحاسـمة، ولا يغل يده فـيما أدرى بـه وأقدر على الاختيار فيه. ولا ينسى أن يعينه إذا خـالفه فى الرأى ليتفق الرأيان المختلفان. فإذا رجع القائد إلى الحصار الذى أزمع أن يتركه رجع إليه وهو مؤمن بصواب

---

(١) الموانئ: يطلق على العتقاء والنصراء والخلفاء.

ما يعمل، ليستمد من الإيمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدى عملا يخالف الصواب فى تقديره.

وهذه السياسة هى السياسة التى جرى عليها فى جميع بعوثه وغزواته وسراياه. وهى السياسة التى لا يستطيع حاكم أن يجرى على غيرها فى حرب قديمة أو حديثة، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكتسبه القائد فى الميدن، وجعلت بطل الفرس رستم المشهور فى التواريخ والأساطير يقول إن عمر هو هازمة فى الميدان، و"أنه هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل! أكل عمر كبدى أحرق الله كبده. . . ".

وربما أخطأ القائد الذى يختاره فمسته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسئول عن اختياره. غير أ،ها لا تمسه من جانب إلا أعفى منها من جانب آخر أو جوانب عدة، كما حدث فى وقعة الجسر التى قتل فيها قائده أبو عبيدة المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين. فهو مسئول عن اختيار هذا القائد كما يسأل رئيس دولة فى مثل ذلك، ولكن أعذاره على التحقيق أكبر من أخطائه فى كل مسألة من هذا القبيل، وفى هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبى عبيد إنصافًا له حجته الراجحة فيه، لأنه كان أول من أجاب الدعوة إلى القتال فلم ير من الإنصاف أن يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين، وقد سوغ الرجل اختياره إياه بانتصاراته الأولى التى رفعت شأنه بين القواد، فلما أخطأ من مخالفة عمر فى وصاياه، ومنها وجوب التريث والحذر من عبور الأنهار والجسور، ولم يكن على عمر لوم فى تنصير عن التنبيه والتحذير.

وقبل أن يضع دستورًا لنفسه قوامه أن الحكم محنة[1] للحاكم ومحنة للمحكومين، و"أنه لا يصلح إلا بشدة لا جبرية[2] فيها، ولين لا وهن

(١) محنة: اختبار، ومحنة من باب قطع وامتحنه واختبره، وإلا سم المحنة، ولذا سميت المصائب بالمحن لأنها اختيار للإنسان.

(٢) جبرية: جبرت وطغيان.

فيه[1]" . . . وأن الخليفة مسئول عن ولاته واحدًا واحدًا فى كل كبيرة وصغيرة، ولا يعفيه من اللوم أنه أحسن الاختيار.

قال يومًا لمن حوله: أرأيتم إذا استعلمت عليكم فى خير من أعلم ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما على! قالو: نعم. قال: لا، حتى أنظر فى عمله أعمل بما أمرته أم لا؟"

وعهوده على نفسه هى خير العهود التى تؤخذ على ولاة وأبينها للحدود القائمة بين الوعى والوعية، وخير ما فيها أنه كان يحث الناس على الاستغناء عن التحاكم إلى الحاكم خلافًا لأصحاب الأمر الذين يودون لو فرضوا لأنفسهم حكمًا فى كل شىء. فكان يقول هلم: "أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضًا على أن تحاكموا إلى. . ".

وجمع صلاح الأمر[2] فى ثلاث: "أداء الأمانة، بالقوة، والحكم بما أنزل الله"، وصلاح المال فى ثلاث: "أن يؤخذ من حق، ويعطى فى حق، ويمنع من باطل".

وعاهد الناس فقال: "لكم على أجنبى شيئًا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهة، ولكم على إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه، ولكم على أن أزيده عطاياكم إن شاء الله وأسد ثغوركم[3]، ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم - أى أحبسكم - فى ثغوركم، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم. فاتقوا الله عباد الله، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى، وأعينونى على نفس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم".

---

(١) وهن: ضعف. (٢) أى أمر الدولة.

(٣) الثغور: جمع ثغر وهو من البلاد الموضع الذى يخاف منه هجوم العدو، ويقصد بسد الثغور والدفاع.

ومن أوائل عهوده فى بيان الحق الذى يرشح الحاكم لولاية الحكم: "أيها الناس: إنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خير لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعًا بما ينوب من مهم أموركم ما وليت ذلك منكم".

فأحق الناس بالحكم أقدرهم على البر والحزم والنهوض بالأعباء، وليس له فى غير ذلك حق يرشحه للحكومة.

ومن أوائل خطبه بعد توليه الخلافة: "إن الله ابتلاكم بى وابتلانى بكم، وأبقانى فيكم بعد صاحبى، فلا والله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه دونى، ولا يتغيب عنى فآلوا[1] فيه عن أهل الصدق والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم".

فهو يعاهدهم أن يلى الأمر نفسه فى كل ما حضره، وألا يعهد فيه إلى غيره إلا إذا غاب عنه، ثم لا يكون وكلاؤه فيه إلا من أهل الصدق والأمانة، ثم هو لا يدعهم وشأنهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتبع أعمالهم، فيحسن إلى ما أحسن وينكل بمن أساء. وقد كان يقول ويعنى ما يقول ويعمل بما يقول.

وصارح القوم فيما لا يحصى من الخطب والأحاديث أن له عليهم حق الطاعة فيما أمر الله فلا طاعة المخلوق فى معصيته لمخلوق فى معصيته الخالق، وأن لهم عليه حق النصيحة ولو آذوه فيها. ومن ذلك الرواية المشهورة التى سأل الناس فيها أن يدلوه على عوجه فقال له أحدهم: "والله لو علمنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا"، فحما الله أن جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه.

ولم يكن يبيح من مال المسلمين أجرًا لعمله إلا ما يقيم أوده[2] وأود

---

(١) فآلوا: ألا يألوا: أى قصر يقصر من باب عدا. فآلوا، أى أقصر، ومنه: لا ألوك نصحا أى لا أقصر فى نصحك ولا أدخر جهدا فيه.

(٢) أود: أود من باب طرب أعوج، فالأود العوج، والمراد ما يكفى حاجاته الضرورية.

أهله عند الحاجة إليه، فإن رزقه الله ما يغنيه عن بيت المال وكيف يده عنه: " . . ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله، بمنزلة ولى اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، تقوم[1] البهيمة الأعرابية: القضم لا الخضم: "، أى كما تأكل ماشية البادية قضمًا بأطراف أسنانها لا مضغًا وطحنًا بأضرابها.

ولما سئل عمل يحل للخليفة من مال الله قال: "إنه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين: حلة للشتاء وحلة الصيف، وما أحج به وأعتمر[2]، وقوتى وقوت أهل كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأقفرهم. ثم بعد رجل من المسلمين".

وقد كان اسخى من ذاك فى تقديره لأرزاق الولاة والعمال، فقدر لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة ردهم فى الشهر له ولمساعديه، يزداد عطاؤه الذى يوزع عليه كما توزع الأعطية على أمثاليه، ونصف شاة ونصف جريب[3] من الدقيق.

وقدر لعبد الله بن مسعود مائة درهم وربع شاه لتعليمه الناس فى الكوفة وقيامه على بيت المال فيها، ولعثمان بن حنيف مائة وخمسين ودرهمًا وربع شاة فى اليوم، مع عطائه السنوى وهو خمسة آلاف درهم. وهكذا على حسب الولايات والنفقات.

وكان يخطر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة التى تبعد ما بينهم وبين الرغبة، ولكنه ينظر فى أعذارهم فيقبلها أو يغضى عنها حيثما صلاح الولاية على ذلك.

---

(١) قرم: أى أكل أكلا ضعيفًا، والمراد أكل أخف أكل من أخشن طعام.

(٢) الحج معروف، والعمرة: الحج الأصغر، وهى مأخوذة من الاعتمار أى الزيادة.

(٣) الجريب: مكيال كان يستخدم، يمكن أن يقدر بما يعادل ٣٦٠ رطلا.

قدم إلى الشام راكبًا على حمار فتلقاه عامله معاوية بن أبي سفيان في موكب عظيم، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة فمضى في سبيله ولم يرد عليه سلامه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتبعت الرجل يا أمير المؤمنين، فلو كلمته! فالتفت إذ ذاك إلى معاوية وسأله: إنك لصاحب الموكب الذي أرى؟

قال: نعم.

قال: مع شدة احتجابك ووقوف ذوي الحاجات ببابك؟

قال: نعم.

قال: ولو ويحك!

قال: لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو، فإن لم نتخذ العدة والعدد واستخف بنا وهجم علينا، وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة[1] جرأة الرعية، وأنا بعد عاملك، فإن استنقصني نقصت، وإن استردني زدت، وإن استوقفني وقفت! فقال عمر: ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه. إن كنت صادقًا فإنه رأي لبيب، وإن كنت كاذبًا فإنها خدعة أريب[2] لا آمرك ولا أنهاك".

أما دستور الولاة عنده فأساسه أن الولاية تميز بالواجب والكفاءة وليست تمييزًا بالوجاهة والاستعلاء، فكان يقول للوالي: "افتح لهم بالك، وباشر أمورهم بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا".

وشغله كل الشغل، أن تخضع الرعية لواليها، رغبة في حكمه، واطمئنانًا إلى عدله، فكان يقول للوالي: "اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك من الناس"، ويقول للرعية: "إني لم أبعث إليكم الولاة ليضربوا أبشاركم[3]، ويأخذوا أموالكم ولكن ليعلموكم ويخدموكم".

---

(١) البذلة: الابتذال وترك الكلفة. (٢) أريب: ذكي. (٣) أبشاركم: جلودكم.

وتستوى عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم. فلما رأى أقوامًا ذميين ينقصون العهد ويثورون على الدولة طلب من صلحاء البصرة وفدًا فيهم الأحنف بن قيس وهو مصدق عنده، فسأله: "إنك عندى مصدق، وقد رأيتك رجلا فأخبرنى "المظلمة[1] نفر أهل الذمة أم لغير ذلك؟"

فقال لأحنف: "لا بل لغير مظلمة، والناس على ما تحب".

فهدأ باله وقال: "فنعم[2] إذًا انصرفوا إلى رحالكم".

وربما ذهب فى إرضاء الرعية مذهبًا لم يحلم به الغلاة من الظالمين بحقوق الشعوب فى هذه العصور.

فكان من قواده وولاته سعد بن أبى وقاص قائده المظفر فى حروب فارس، وقريب رسول الله ﷺ، والرجل الذى جعله عمر واحدًا من ستة يستشارون بعده فى أمر الخلافة، فثارت به طائفة من أتباعه وشكته إلى عمر وجيوش الفرس تتجمع للغزو والثأر. فلم يشغله ذلك عن تحرى الأمر من مصادره، وإيفاء من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها. فعث بوكليه على العمال محمد ابن مسلمة يسأل عن سعد وسيرته فى الرعية. وكما سأل عنه جماعة أثنوا عليه، إلا من شكوه فقد أحجم فريق منهم لم يمدحوه ولم يذموه، وقال فريق منهم: "إنه لا يقسم بالهوية، ولا يعدل فى القضية، ولا يغزو فى السرية".

فعاد محمد بن مسلمة إلى المدينة وسعد معه، وأعاد عمر سؤاله فلم تثبت له من أمره ريبة، إلا أنه اتقى الفتنة والخطوب منذرة، فعزله وقال لشاكيه: "إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم لهذا الأمر، وقد

---

(١) المظلمة: بفتح الميم وكسر اللام: اسم لما تطلبه عند الظالم كالظلامة.

(٢) أى: ألا ضير إذن.

استعـد لكم من استعد، وايم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فـيما لديكم وإن نزل بكم"، وقال لسعد يومئذ مبرئًا له من تهمة خصومه: "هكذا الظن بك يا أبا اسحق! ولولا الاحتياط لكان سـبيلهم بيننا". ثم أبى أن يفارق الدنيا وفى ذمتـه شهـادة لسعـد يعلنهـا لملأ المسلمين، فلمـا حضـرته الوفاة وسـألوه أن يستخلف أبى أن يخلف أحداً من أهله، وسمى عليًـا وعثمان وطلحة والزبير وعـبد الرحـمن بن عوف وسـعداً "لأنهم نـفر توفى رسـول الله وهو عنهم راض. فأيهم استخلف فـهو الخليفة".. ثم قال: فإن أصـابت سعداً فذاك، ولا فأيهم استخلف فليتسعن به، فإنى لم أعز له من عجز ولا خيانة.

وهذا مـثل من أمثلة الوفـاء بجـميع لحـقوق، والرعـاية لجمـيع الذمم حاكمين ومحكومين.

ولا يبـعـد أن يقع الـغبن على بعض الولاة الكفـاءة مـن فـرط العناية بشكايات الرعية، إلا أن عمر فى حزمـه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمـرين. فغبن وال أو قـائد أهون من غبن أو جيش.. ومن أقـواله فى ذلك "هان شىء أصلح به قومًا أن أبدلهم أميراً مكان أمير".

بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاءة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القـصاص، وإنما هو سـبب من الأسبـاب التى ترجع إلى سـلامة الدولة أو ما نسميه فى الصور الحديثـة بالسياسة العليا. وهذه أسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر فى أيام تأسيـس الدول وتجربة النظم الحديثة، وأولها عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين.

فربما كان الوالى المقتدر المحبوب أخطر علـى الدولة الناشئة فى تأسيسها من الوالى العاجز البغيض، إذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب عسير.

فقد تزين له نفسه، أو تزين له رعيـته، أن يستقل بالأمر وينتحل لذلك ما شاء من المعاذير. فإنه فاته الاستقلال ورئيسه قوى مهيب لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس ولو جـاء بعده من يضـارعه فى القـوة والمهابة، لأن الفتـرة بين

زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذن بمثل هذا التقلقل، وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج[1] منها بعد طول تربص واستعداد. ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الاسكندر المقدونى وتواريخ العناة من قياصرة الرومان، ولا كان الغيب قد انكشف له فرأى ما تلاه من الأمثلة فى دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من الشرقيين والغربيين، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعً وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم لما ندم لحظة على عزل الدين عزلهم وهو يقول لهم: إنما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم، أو لكيلا تفتتنوا بالناس كما افتن الناس بكم، ولكان له سبب آخر وجيه بالغ فى الوجاهة يدعوه إلى تغليب الرعية على مكانة الولاة، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد وتم لهم القدرة ويحوطهم الحب والولاء فلا يبقى بينهم وبين الانتفاض[2] إلا الفرصة السانحة، وهى أقرب شىء سنوحًا فى إبان التأسيس والانتقال.

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التى من هذا القبيل فلا جزء إلا بقسطاس دقيق محيط ولاسيما فى الشئون المالية، لأنه يعتمد فى محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض، فلا تكاد تخفى عليه خافية مما يريد الوقوف عليه.

فمن هذه الوسائل أنه كان يحصى أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زاده بعد الولاية مما لا يدخل فى عداد الزيادة المعقولة، ومن تعلل منهم بالتجارة لم يقبل منه دعوة لأنه كان يقول لهم: إنما بعثنا كم ولاة ولم نبعثكم تجارًا.

ومنها أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليبلغوه ما ظهر وما خفى من أمرهم، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس إليه أن يرفع نبأه إلى الخليفة.

---

(١) يلج: مضارع ولج أى دخل. (٢) المراد الخروج على الدولة والاستقلال بالولاية.

ومنها أنه كان يندب لهم وكيلا خاصًا يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعة فيها، ليستوفى البحث فيما ينقله الرقباء والعيون.

ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهارًا إذا وقفوا[1] إليها من ولاياتهم، ليظهر معهم ما حملوه فى عودتهم ويتصل نبؤه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقى الطريق.

ومنها أنه كان يستقدمهم فى كل مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم، وعليهم شهود ممن ياء أن يحصر الموسم من أهل البلاد. ونوى فى أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير فى البلاد "فقيم شهرين شهرين فى الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها، فإنه ليعلم "أن للناس حوائج تقطع عنه، أما هم فلا يصلون إليه، وأما عمالهم فلا يرفعون إليه".

وكان لا يكتفى بوسائله تلك إذا استراب، فيعمد إلى الحلية للكشف عن الخبايًا التى تربيه. ومن ذلك أنه سمع بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية والى الشام، فوقع فى نفسه أن ولده قد زوده فى عودته بمال. وجاءه أبو سفيان مسلمًا فقال له: أجزنا[2] يا أبا سفيان! قال: ما أصبنا فنجيزك! فمد يده إلى خاتم فى يده فأخذه منه وبعثه إلى هند زوجه، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها: أنظرى الخريجين اللذين جئت بها فابعثيهما. فما لبث أن عاد بخريجين فيها عشرة آلاف درهم، فطرحهما عمر فى بيت المال.

وكانت سنته إذا ثبتت على الوالى شبهة التصرف فى بيت مال المسلمين أن يصادر المال الذى ظفر به أو يقاسم الوالى فيما أربى[3] على كسبه المعقول، فيترك له النصف ويضم النصف إلى بيت المال، وهذا غد ما يجزيه به من عزل أو عقاب.

---

(١) قملوا: رجعوا. (٢) أجزنا: المقصود أعطنا. (٣) أربى: زاد.

أما حساب الشكايات من المظالم فكانت سنته فيه التحقيق ثم الجزء على شرعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها. فمن ضرب ضرب، ومن غضب رد ما غضب! ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب.

وقد يأخذ الوالى أحيانًا بوزر[1] ولده أو ذوى قرابته إذا وقع فى نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالى المسئول عنها.

جاء مصر فشما إليه وإليها عمرو بن العاص، وزعم أن الوالى أجرى الخيل فأقبلت فرس المصرى فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح: فرسى ورب الكعبة! ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالوسط ويقول له: خذها وأنا ابن الأكرمين. وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى فحبسه زمنًا، وما زال محبوسًا حتى أفلت وقدم إلى الخليفة لإبلاغه شكواه.

قال أنس بن مالك راوى القصة: فو الله ما زاد عمر على أن قال له أجلس... ومضت فترة إذا به فى خلالها قد استقدم عمرًا وابنه من مصر فقدما ومثلا[2] فى مجلس القصاص. فنادى عمر: أين المصرى. دونك[3] الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين.

"فضربه حتى أثخنه[4] ونحن نشهى أن يضربه. فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب أبن الأكرمين! ثم قال: أجلها[5] على صلعة عمرو! فو الله ما ضربك ابنه إلا بفعل سلطانه... قال عمرو فزعًا: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، وقال المصرى معتذرًا: يا

---

(١) الوزر: الذنب.
(٢) مثلا: مثل ما بين انتصب قائمًا، وبابه دخل.
(٣) دونك الدرة: اسم فعل بمعنى خذ.
(٤) أثخنه: أضعفه وأوجعه وأوهنه.
(٥) أجلها: أدرها.

أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى. . . فقال عمر: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه. والتفت إلى عمرو مغضبًا يقول له تلك القولة الخالدة التى ما قالها حاكم قلبه: "أيا عمرو! متى تعبدتم[1] الناس ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟"

ومن هذا العدل فى شئون الولاية نستطيع أن نفهم دستوره فى شئون القضاء، فلن يكون هذا الدستور إلا دستور العدل المحكم فى الجزاء والفصل بين الحقوق. إلا أننا نعتقد أن وصاياه فى القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه، فلا تعقيب بعدها فى زمانه أو فى زمان يليه، مهما تختلف الأقوام والأوقات.

أنشأ وظائف القضاء وتخير لها العدول[2] الأكفاء. ولم تكن به من حاجة هنا إلى أن سن الشريعة التى يحكمون بها فإنها ماثلة فى الكتاب والسنة، ولكنه كان فى حاجة إلى تعليم القضاه كيف يتصرفون حتى يلتبس عليهم الأمر، فأحسن التعليم.

كان يكتب لأحدهم: "إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله ﷺ فاقض بها، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فى سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به، فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ولم يكن فى فيه من سنة رسول الله، ولم يتكلم فيه أحد فاختر أى الأمرين شئت: إن شئت أن تجتهد وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأهر فتأخر[3]. ولا أرى التأخير إلا خيراً لك".

وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه، فلم يقطع يد السارق فى عام المجاعة رعاية للزمن، ولم يقطع يد الغلام الذى سرق من سيده رعاية

(١) تعبدتم: استبعدتم.
(٢) العدول: جمع عدل، وهو العادل.
(٣) تقدم: تتقدم ثم "وتأخر": أى تتأخر.

لسنة أو للعلاقة بين السارق والمسروق منه، واشتركت امرأة وصاحبها فى قتل فتحرج من قتل اثنين بواحد حتى فتاه على رضى الله عنه بأنهما مستحقان للقتل كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد إذا سرقوا لحمًا من بغير واحد، فأخذ بفتواه.

ومن وصاياه للقاضى: "آس بين الناس فى مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف فى حفيفك[1] ولا ييأس ضعف من عدلك، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالا وأحل حرامًا، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى[2] فى الباطل. الفهم الفهم عندما يتلجلج[3] فى صدرك ما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى ﷺ، واعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك ثم أعمد[4] إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعى حقًا غائبًا أو بينه أمدًا ينتهى إليه، فإن أحضر بيته أخذ: له تحقيقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر... المسلمون عدول[5] بعضهم على بعض إلا مجلودًا فى حد أو مجربًا عليه شهادة زور، أو ظنينًا[6] فى ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ[7] عنكم بالشبهات. ثم إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر، ويحسن بها الذخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الناس تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفيه الله وما بينه وبين الناس".

ومن وصاياه لم يلون الحكم: الزم خمس خصال يسلم لك دينك

---

(١) حيفك: ظلمك.
(٢) التمادى: الاستمرار والإصرار.
(٣) يتلجلج: يتردد ويتحير.
(٤) اعمد: أقصد.
(٥) عدول: تقل شهادتهم.
(٦) طغينا: متهما.
(٧) درأ: منع العقوبة.

وتأخذ فيه بأفضل حظك: إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبنية العادلة أو اليمين القاطعة.

وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه، وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله، وإنما ضيع من لم يرفق به. وآمس بين الناس فى لحظك وطرفك، وعليم بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء".

تلك نماذج متفرقة من وصاياه للقضاة وولاة الأحكام، وهى فيما نراه أحكم وصاياه، وأقربها أن يتبعها سواه.

ولذلك سبب لا يعسر تعليله. فقد كان عمر فى الجاهلية حكمًا قبيلة محكمين، أو سفيراً يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء، فهو فى هذه الصناعة عريق.

إلا أن المرء قد يجلس للحكم بين الناس كما جلس عمر ولا يحسن الوصية فيه كما أحسنها. وإنما بلاغ حسن الوصية أن تجمع الخصلتين اللتين اجتمعتا فى وصاياه لقضاته. فما من أحد يستطيع أن يوصى قاضىً بخير مما أوصى، وما من عقدة قضائية تأتى من قبل القضاة أو من قبل المتقاضين إلا وهى ملحوظة فى كلامه، وهاتان هما الخصلتان الباديتان فى دستور القضاء كما أملاه.

ولا بد أن يلفت النظر فى سياسته للولاية وسياسته للقضاء أنه كان يأخذ الواجب حيث وجب، وإن اختلف الواجبان.

ففى الولاية كان يتحرى البواطن ويمعن فى تحريكها ولا يكتفى من الناس بالظواهر.

وفى القضاء وما شابه القضاء كان يكتفى بالظواهر حتى تنقضها البنية[1]

(١) البنية: الدليل والبرهان.

القاطعة، وان يعلن هذه الخطة على المنبر فيقول: "أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر، فإن من أظهر لنا قبيحًا وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظنًا به حسنًا"، أو يقول:

"إنما كنا نعرفكم إذ الوحى ينزل، وإذ النبى ﷺ بين أظهرنا، فقد رفع الوحى، وذهب النبى ﷺ، فإنما أعرفكم بما أقول لكم. ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا وأثينا عليه، ومن أظهر لنا شراً وأبغضناه". بل كان له فى الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبه فى القضاء، فكان يكره أ، يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه، وينهى أن تظن بكلمة شراً وأنت محملا.

وهذه فى الظاهر نقائض، وفى الحقيقة واجبات متعددة كل منها فى موضع لازم. فالعلم بحبايا الحكومة على كل ولى مسئول لا تنصلح الأحوال بغيره، وفى الغفلة عنه محققة لجميع الناس.

والأخذ بالبينة دون الظاهر فى شئون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور، وهو فى أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة ا لبشرية، إذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق القضاة فى الحكم بغير برهان.

وفى الأخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الأصدقاء إذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمات، ومنها الأسرار.

والتفرقة بين الواجبات المختلفة هى دليل البصيرة فى عرفان كل واجب منها، وأنها تصدر عن رأى أصيل عن تسخيز العرف واملاء التقليد والمحاكاة.

وأنشئت فى عهد عمر دواوين أخرى غير دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبة التى لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده. فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السكة

لضرب النقود ودار لحبس للعقاب. ووكل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم وهو فرائض الدفاع والجهاد. . . فلو وجد منهم من يفى[1] لتلك الأعمال لكانت خسارة الدولة فى قيامهم بها أعظم من ربحها، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم اللازب للمصلحة الكبرى، وقد يكون عمل الفارسى فى مصلحة فارس والسورى فى مصلحة سورية والمصرى فى مصلحة مصر أحرى[2] أن يعصمهم إن كان بهم عاصم، وإلا فلا تثريب[3].

ووضع عمر نظامًا لتحصيل الجزية وتصرف فى وضعها على حسب الأمم والبلاد. فأفعى التغلبيين بالشام من الجزية وفرض عليهم بديلا عنها ضعف صدقة المسلم، لأنهم أنفوا أن يؤدوها أزمعوا اللحاق بأرض الروم.

وكان له نظام اقتصادى يوافق مصلحة الدولة فى عهده، فكان يحض على التجارة ويوصى القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك. ولكنه أبقى الأرض لأبنائها فى البلاد المفتوحة ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند فى الجيش القائم. وإذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء. وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم، وأن يعتصم(٤) الجند الإسلامى من فتن النزاع على الأرض والعقار، ومن فتن الدعة(٥) والاشتغال بالثراء والحطام. وربما أغضى(٦) عن كثير فى سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها. فصفح عن أهل السواد "العراق" ليأمنوا البقاء فيه، مع أنهم حنثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين فى أثناء القتال.

---

(١) يفى: يكفى ويصلح. (٢) أحرى: أجدر.

(٣) تثريب: لوم وذنب. (٤) يعتصم: يمتنع ويتحصن.

(٥) الدعة: الخفض والرفاهية. (٦) أغض: أغمض عينه وصفح.

ويلوح من كلامه فى أخريات أيامه أنه كان نية النظر فى تصحيح النظام الاقتصادى وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذى وجدها عليه، فقال: "لو استقبلت من أمرى ما استدبرت[1] لأخذت فضول[2] أموال الأغنياء فقسمها على الفقراء".

ولم يرد فى كلامه تفصيل لهذه النية، ولكن الذى نعلمه من آرائه فى هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه. فعمر على حسبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدًا[3] بين المساواة فى الآداب النفسية والمساواة فى السنن الاجتماعية. فكتب إلى أبى موسى الأشعرى: "بلغنى أنك تأذن للناس جمًا غفيرًا[4] فإذا جاءك كتابى هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة"، ولكنه ما رأى الخدم وقوفًا لا يأكلون مع ساداتهم فى مكة غضب وقال لساداتهم مؤنبًا: ما نقوم يستأثرون على خدامهم؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة، فى جفان واحد

فالمساواة فى أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفى التفاصيل بالدرجات، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة، فكان يقول لهم فى خطبة: يا معشر الفقراء، ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالا[5] على المسلمين". وكان يوصى الفقراء الإنسانية والأغنياء معًا "أن يتعلموا المهنة، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء".

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول الغنى

---

(١) المراد لو رجع من عمرى ما فات. (٢) فضول: ما زاد عن الحاجة، جمع فضل.
(٣) أبدا: دائمًا. (٤) جمعا غفيرا: جميعًا، الشريف مع الوضيع فى كثرة.
(٥) لا تكونوا عيالا مع المسلمين: لا تعتمدوا على أن يعولوكم.

وتقسيمه بين ذوى الحاجة، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها فى وجوه البر والإصلاح.

على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسًا لديون الوقف الخيرى على الوجه الذى نعهده الآن، فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام، وأصاب قبل خلافته أرضًا بخير النبى عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصله ويتصدق بريعها، فجعلها عمر صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم، ولا جناح[1] على من وليها أن يأكل بالمعروف، ويطعم صديقًا فقيراً منها.

وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة إليها فى وقته فلم تجده مسألة منها دون ما تحتاج إليه من إصابة الرأى وحسن الروية. فكانت نصائحه فى تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح، وكانت دواعيه إلى بنائها من أشرف الدواعى وألقيها بالأمير.

شاهد فى الجند هزالا وتغير ألوان فسأل قائدهم سعدًا: ما الذى ألوان العرب ولحومهم؟ فأجابهم: إنها وخومة[2] المدائن ودجلة، فكتب إليه: "إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث سليمان وحذيفة فليرتادا[3] منزلا بريًا بحريًا ليس بنى وبينكم فيه بحر ولا جسر"، وأمر أن تبلغ مناهج[4] المدنية أربعين ذراعًا وما يليها ثلاثين ذراعًا وما بين ذلك عشرين، وألا تنقض الأزقة عن سبع أذرع ليس جونها شىء، وألا يرتفع بناء الدور.

وعلم أن الجند يشكون الشتاء ويعوزهم الملجأ الذى يسكون إليه بعد الغزو فى حدود فارس، فكتب إليه عتبة بن غزوان أن "أرتد لهم منزلا قريبًا

---

(١) لا جناح: لا إثم ولا حرج ولا ذنب.
(٢) وخومة: فساد الجو والبيئة.
(٣) فليرتادا: فليختارا بعد البحث.
(٤) مناهج: طرق.

من المراعى والماء"، ووصف له ما يلتـزم من مواقفه وخططه، فبـنيت البصرة عند ملتقى النهرين.

وهو الذى أشار على عمرو بن العاص أن يحـفر خليجًا بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة، وضرب له موعد حولا يفرغ فيه حفره وإعداده لمسير السفن فيه، فساقه من جانب الفسطاط إلى القلزم[1]، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، وسمى خليج أمير المؤمنين، ولم يزل مفتوحًا حتى ضيعه الولاة وغفل عنه الخلفاء.

فسياستـه التعميرية وافية بالغرض منها لعـصره، وقد يلاحظ عليها أبناء العصـر الحاضر شـيئًا لا يوافـقهم كالحـد من ارتفاع الدور والزهد فى تشيـيد القصور. أما هو فالوجه الذى توخاه فى سيـاسة التعمير أن يحمى الدولة فى نشأتهـا من الترف والبذخ، وأن يحول بين الجند وبين الاسـتنامة[2] إلى متاع القصور المشيدة، والصروح الممردة، وما فيها من بواعث الرهن والفتور. ومن فلاسفة العـصر الحاضر من يحسب ضخامة البناء دليـلا على ابتداء وعفاء[3] العقـيدة، ويقول شبنجلر أحـد هؤلاء الفلاسفـة: إن الأمم فى نهوضها تعـبر طريقين مختلفين: طريق العقيدة وقوة النفس، وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر، وطريق الـفخامة المادية والوفرة العـادية وفيه تنحل الضمـائر تحلفها العظمة التى تقاس بالباع والذراع، وتقـدر بالقنطار والدينار، وكانت قبل ذلك تقاس بما لا يحس من العزائم والأخلاق.

وعمر على كلتا الحالتين، لم يتـعد طبائع الأشياء، ولم يأخذ فى زمانه بغير الصالح من الآراء.

---

(١) القلزم: مدينة السويس الحاليـة، وكان البحر الأحمر قديمًا يسمى بحـر القلزم نسبه لهذه المدينة.

(٢) الاستنامة: الاطمئنان والرغبة والرضا. (٣) عفاء: انتهاء وفناء.

وقصارى القـول، أن هذا رجل لم تواجهه فى ولاياته الواسعـة صعوبة أكبر منه وأحوج إلى قدرة أعلى من قـدرته أو هيبة ودرية أجل مما كان له من هيبـة ودراية، فإذا عرضت الصـعوبة الطارئة فهناك الحـزم اللازم لمواجهتـها، والحيلة الصالحة لتدبيرها، كأنما كان لها على استعداد، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس[1] بهذه الأمور.

وكان اضطلاع[2] بتـفـريج الأزمات والـكوارث كالضطـلاعه بتـدبيـر الحاجات إلى التعـمير والتنظيم. ففى السنة الثامنة عشرة للهـجرة فاجأه قحط الرمادة المشهورة، وهو القحط الذى يقال فى وصفه أوجز من قولهم يومئذ أن الوحش كانت تأوى فيه إلى الإنس، وإن الرجل المتـضور من الجوع كان يذبح الشاة فيعاقبها لقبحها.

فنهض لهـذه الكارثة نهوضه لـكل خطب، واستجلب الـقوت من كل مكان فيـه مزيد من قوت، وجـعل يحمله على ظهره مع الحـاملين إلى حيث يبعثر بالجياع والمهـزولين العاجزين عن حمل أقواتهم، وآلى[3] على نفسه لا يأكلن طعامًا أنقى من الطعام الذى يصيبه الفـقير المحروم من رعاياه، فمضت عليه شهـور لا يذوق غير الخبـز والزيت، ونظر فى كل شىء حتى فى تعليم كل بيت ينتفع بالرزق لذى يرسله إليهم مع عماله. . . فقال الزبير بن العوام: "اخرج فى أول هذا العير فاستقبل بها نجدًا، فاحمل إلى أهل كل بيت قدرت أن تحملهم إلى، ومن لم تستطع حمله فمـر لكل أهل بيت ببعيـر بما عليه، ومرهم فليلبسوا كسـاءين، ولينحرا البعير فليحملوا شحمـه، وليقددوا لحمه، وليحتنروا[4] جلده، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وحفنة من دقق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق".

---

(١) يتمرس: يتدرب ويتمرن ويعالج.

(٢) اضطلاعه: احتماله وقيامه.

(٣) آلى: حلف. (٤) حز الجلد واحتزه: قطعه.

وهذه السهولة فى مواجهة كل حالة بما يوائمها هى التى تبرز لنا "مؤسس الدولة الملهم" فى هذا الرجل العظيم.

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القرطاس صعب عند تصرنا إياه، وإحاطتنا بنا يستدعيه مَن تدبير وإنجاز وخلق وهيبة. فكم بين المدينة وتلك الأطراف فى زمن أسرع وسائله بعير سريع! وكم عمل عمر لملاحقة كل جيش يسير وكل بلد يفتح، وكل أمة تحكم، وكل عارض يطرأ على غير رقبة[1] ولا سابقة خبرة؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل، واختيار القواد على حسب ما يندبون له وليس بسهل، والأمر بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل، والسؤال عن قادة الأعداء ومداوراتهم[2] ليستقصى خبرهم ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والعدة وليس بسهل، وإنشاء المدن والعمائر فى مواضعها، وإقامة الدواوين عند الحاجة إليها، وإرضاء الأمم والجيوش بالإصغاء إلى شكاياتهم لو جاءت فى غير أوانها، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغى لها، والمشاورة لمن تسمع منه المشورة، والاجتهاد بالرأى عندما تختلف الآراء، والاشتغال بكل شاك كأنه لا يشتغل بغير ما شكاه، وخدمة الناس فى دينهم وخلقهم كخدمته إياهم فى دنياهم ودولتهم، وتجدد هذه المتاعب يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام، وهى شاقة لا سهولة فيها على غير صاحبها القدير عليها ولو زاولها،عرضًا إلى أيام.

وجليل بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبه قنع منه بالإشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرهق وأجير الديوان الصغير، لكنه كما تعلم كان يكدح بيده ويحمل على ظهره ويعقب[3] بعينه، ولا يدع أحدًا من خدام الدولة الواسعة إلا وهو شريك له فى مثل ما يتولاه.

---

(١) رقبه: ترقب وانتظار. (٢) المداورة: المحاربة والافتنان فى أساليب القتال.

(٣) يتعقب: يتبع ويفحص.

وأكبر ما يستحق الإكبار فى هذا الرجل الكبير أنه كان قادراً على تأسيس الدول وعلى فتح الأمصار، ولكنه راض[1] القدرتين فلم يقدم على فتح الأمصار إلا بمقدار.

فليس الفتح شهوة عنده ولا المجد الحربى لبانة[2] من لباناته، وهو على علمه بأن الله وعد المؤمنين أن يورثهم الأرض لم يكن يرى فى ذلك داعيًا إلى العجلة بالفتح، كما كان يرى فيه دواعى للتبصر والأناة، حتى لا يسفك فى دم غير موجب ولا تعتسف بغير روية.

فكان همه الأكبر تأمين الجزيرة العربية من أطارفها وحماية الإسلام فى عقر داره. ولولا أن الدول العظمى التى كانت تحدق بجزيرة العرب تحفزت[3] للبطش بها وقمع دعوتها فى مهدها لكانت للدولة الإسلامية سياسة أخرى فى مصاولة أولئك الأعداء.

فدولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم[4] الجزيرة. ومنهج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبى عليه السلام، وكان المسلمون يعيشون فى فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها. يدل عليه كلام وهو يتحدث عن أزواج النبى حيث يقول: " . . . وكنا تحدثنا أن غسان[5] تنتعل النعال لغزونا، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بأبى ضربً شديداً وقال: أثم هو؟ ففزعت فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم. . . قلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا. بل أعظم منه وأطول. . . طلق النبى ﷺ نساءه! ".

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالدليل والنهار.

---

(١) راض: روض وذلل.
(٢) لبانة: حاجة ورغبة.
(٣) تحفزت: استعدت وتوثبت.
(٤) تخوم: حدود.
(٥) غسان: عرب الشام.

أما فارس فقد بلغ بطغيانها أن عاهلها غضب من دعوته إلى الإسلام فأوفد إلى الحجاز رسولا مع نفر من الجند ليأتيه بالنبى العربى حيًا أو ميتًا!! ولولا أنه مات قبل إنجازه وعيده واستعلت نيران الفتن فى بلاده لوطئت الجيوش الفارسية أرض الجزيرة العربية قبل أن ينهض العرب للدفاع. وما هو إلا أن حفظ العرب حدودهم من قبل العراق الفارسى حتى سكنوا إلى ذلك، وود عمر بن الخطاب "لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم"، ولم تتغير خطته هذه إلا حين استوى يزدجر على عرش فارس وتأهب للغارة على المسلمين وإخراجهم من حيث نزلوا، فتجدد القتال.

وقد طال تردد عمر فى فتح مصر، ولم ينبعث إلى غزوها حبًا للغزو ولهجًا[1] بالفتوح، ولولا أن علم أن أربطوا قائد الروم فى بيت المقدس قد فر منها إلى مصر ليحشد فيها الجنود ويتأهب للكر على الشاك لطال تردده فى الزحف عليها. ومع هذا أولئك أن يسترجع عمرو بن العاص بعد أشخاصه إليها، ونهاه عن ألا يغال فى المغرب بعد فتحها، لأن السطوة - وهو مقتدر عليها - لم تكن تزدهيه[2] ولا تغويه، ولأن الضن بالأرواح أغلب فى طبعه من الشغف بالفتوح، وأن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار!".

فلا يخطى القائل الذى يقول إن الأناة فى السطوع أكبر ما يستحق الإكبار من هذا الخلق الرفيع، وإن دلالته الإنسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالمآثر. لأنه يرينا القوة كيف تكون نعمة إنسانية عالية ولا تكون إلزامًا نقمة من نقم الأثرة والأنانية، ويرينا الرجل كيف يقوى فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخيف الضعفاء.

---

(١) لهجا: اللهج بالشىء الولوع به.

(٢) تزدهيه: تسهويه وتستخفه.

وبحق يتـزود بهذه القوة مـؤسس دولة تقوم على ديـن، لأن الدولة قد تقيمها القوة الطاغية، أما الدين فلا يهدمه شيء قوة الطغيان.

إن البأس الذى رزقـته نفس عـمر لحظ عظيم. ولكنه لـو كان فى يدى غيرها لقد يكن نصيبها منه أوفى من نصـيبها وهو فى يدها، فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصـه دون غيره، ول يضرب به قط بمعـزل عن الإيمان حتى فى أيام الجاهلية. فلو لم يقع روع[1] عمر أن محمدًا أهان قريشًا وانتقص دينها لما تصـدى له بأذى، ولولا حرمـة الإيمان الجـاهلى لما أثار على إيمـان محـمد وصحبه.

وغاية مـا هنا لك أنه فرق بين إيمان، ففى الجـاهلية كان إيمانـه مضلا فعقم ولم يأت بطائل، وفى الإسلام كان إيمانه رشيدًا فأتى بأطيب الثمرات.

قبل أن يقال إن عمر كان أكبر فاتح فى صدر الإسلام ينبغى أن يقال أنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام، وإنه أسسها على الإيمان ولم يؤسسها على الصولجان[2]، فكان مؤسـسًا لهـا قبل أن يلى الخـلافة وينفرد بالـكلمة العليا، وكان من يوم إسـلامه آخذًا فى تشييـد هذا البناء الذى تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء.

إن تاريخ عمر وتاريخ الدولة الإسلامية لا يفترقان، فإذا بدأت بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذاك، ولن يطول بك الاستطراد، حـتى تثوب إليه كرة أخرى.

---

(١) الروع بالضم: القلب والعقل والبال.

(٢) الصولجـان: عصا الملـك، فارسى معـرب، إذ لا يجتمع فى كلـمة صاد وجـيم، الجمع الصوالجة والمراد أنه لم يوسسها على الطغيان والأبهة، وغطرسة الملوك.